٥٠

مدرسة دار الحكمة للعلوم الإسلامية

مركز مدار للتنمية والدراسات الإسلامية

محاضرة مكتوبة

الرؤية والإيمان: الثبات على العقيدة والتسليم



سماحة
السيد رشيد الحسيني

محاور المحاضرة:

- مشكلة فقدان الرؤية.
- معاناة النخبة وفقدان وضوح الرؤية.
- كيف أقوي إيماني؟
- الأُمم التي سقطت وفشلت.
- المشكلة المركزية.
- بناء الإيمان وأثر القدوة في هداية الأجيال.
- أمثلة على قوة الإشارة الواحدة.
- أهمية مجالسة العالم.
- كيفية نقل الإيمان للأجيال.

قال الله العظيم في كتابه الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 143].

مشكلة فقدان الرؤية

مشكلة البشر، ومشكلة المسلمين بشكل خاص، هي فقدان الرؤية.

الذي يفقد الرؤية لا يعرف إلى أين يتجه، ولا إلى أين يتحرك، ولا ماذا يريد؟ وهذا النوع من الإشكال نعيشه في كثير من الأحيان، وهو ما يمكن أن نسميه مشكلة فقدان الرؤية.

قد نخرج ونحن نملك برنامجا واضحا؛ نتوجه إلى مكان معين، أو نحضر برنامجا محددا، أو نتحرك باتجاه معين، لكن السؤال الأهم: ما رؤيتنا؟ وما هدفنا؟ وما الغايات التي تقف وراء هذه الحركة وهذا الخروج؟

كثيرا ما ننشغل بالحركة نفسها وننسى الغاية منها. نعرف إلى أين نذهب، لكننا لا نعرف لماذا نذهب؟ وماذا نريد أن نحقق من وراء ذلك؟ وهذه المشكلة لا تتعلق بفرد معين، وإنما نجدها حاضرة في واقع مجتمعنا.

ومن المشكلات التي نعيشها أيضا عدم التركيز، نريد أن نعرف كل شيء، ونلتفت إلى كل جانب، ونتابع كل موضوع، وفي النهاية تتشتت جهودنا وتضيع البوصلة. فليس المطلوب أن نعرف كل شيء، وإنما أن نعرف ما الذي نريده، وما الذي ينبغي أن نركز عليه، ثم نوجه حركتنا واهتمامنا نحوه.

إن وضوح الرؤية هو الذي يمنح الإنسان قدرة على معرفة الاتجاه، وترتيب الأولويات، وفهم الغاية من خطواته. أما حين تغيب الرؤية، فقد تتحول كثرة الحركة والبرامج والاهتمامات إلى تشتت، حتى وإن بدا الإنسان في ظاهره منشغلا ونشيطا.

معاناة النخبة وفقدان وضوح الرؤية

معاناة النخبة، ومعاناة الطليعة، ومعاناة المجموعة التي يمكن أن نسميها نخبة الأمة، تتمثل في كثير من الأحيان في حالة التشتت التي تصيب الأفكار والتوجهات، وفي عدم وضوح المنهج الذي تسير عليه.

وهذا الأمر يجعل الناس يعيشون في دوامة، ويجعل النخبوي، الذي يفترض أن يكون صاحب مشروع وموجها للأمة، يعيش هو نفسه حالة من التخبط، فعندما لا تكون الرؤية واضحة، يصعب تحديد الاتجاه، وتتشتت الجهود، ولا يعود الإنسان يعرف ما الذي ينبغي أن يركز عليه.

إن سبب هذا التخبط، وسبب عدم التركيز، يرجع في جانب كبير منه إلى عدم وضوح الرؤية؛ فحين تتضح الرؤية يتحدد الاتجاه، وتنتظم الأفكار والتوجهات، ويصبح للمشروع مسار يمكن السير فيه بوعي وتركيز.

مثلا، أريد أن أطالع، وعندي توجه جيد نحو المطالعة، لكن السؤال: ما الذي أطالعه؟

قد أجد كتابا يعجبني فأبدأ بقراءته، ثم أكمله أو لا أكمله، وبعد ذلك أنتقل إلى كتاب آخر، ثم إلى موضوع آخر، وهكذا أجد نفسي أنتقل من كتاب إلى كتاب، ومن موضوع إلى موضوع، حتى ينتهي موسم من مواسم الفراغ، وأريد في نهايته أن أخرج بنتيجة أو برؤية واضحة، فلا أجد شيئا محددا.

تكون النتيجة تشتتا في المعلومات، وتشتتا في المطالعات، وتشتتا في التركيز، وفي النهاية نجد أنفسنا ندور في محور واحد وفي دوامة واحدة. وللأسف الشديد، فإن نخبنا ومجموعة القادة، الذين يفترض أن يكونوا على مستوى عال من التفكير والوعي في هذا المجال، قد يكونون هم أيضا مبتلين بهذه المشكلة.

بينما لو أنني، قبيل شهر رمضان مثلا، حددت ما الذي أحتاج إليه، فسوف تتغير طريقة تعاملي مع المطالعة. أقول: أنا ضعيف في الجانب العقائدي، وأحتاج إلى معالجة هذا الضعف.

وليس المقصود أن عندي مشكلة في كل أبواب العقيدة. فمثلا، في باب الولاية الإلهية أنا جيد، وعندي رؤية واضحة في مسألة الولاية ومسألة الإمامة، ولا أجد مشكلة في هذا الجانب، وإن كان بابا من أبواب العقائد.

لكن عندي مشكلة في مسألة العدل الإلهي، وحتى في هذا الباب ليست المشكلة عامة، وإنما تتعلق بموضوع محدد، فإذا عرفت هذا الموضوع وحددته، أصبح بإمكاني أن أوجه مطالعتي نحوه، بدلا من أن أتنقل بين الكتب والموضوعات من دون هدف واضح.

حسناً، إن تحديد نقاط الضعف والتركيز عليها هو، في واقع الحال، ما يساعد على معالجة الخلل بصورة صحيحة. فإذا شخصت ضعفا في جانب العدل الإلهي، وبالتحديد في قضية الجبر والاختيار، فسأدرك أن هذه المسألة تحتاج إلى معالجة ودراسة.

فلو سألني غير مسلم، أو سألني ملحد، أو طرح علي شخص لديه شبهة سؤالا في هذا الموضوع، فقد أراوح مكاني ولا أستطيع أن أتقدم في الجواب؛ لأنني لم أعالج هذه النقطة بالشكل الكافي. والمفروض أن أكون صاحب رسالة، وأن يكون لدي مشروع، وأن أكون رائدا في مجموعتي، لكنني إذا لم أعالج نقاط الضعف الموجودة عندي، فقد أجد نفسي عاجزا عن تجاوز هذه الشبهة.

لذلك، بعدما شخصت النقص في هذا المجال، أبدأ بتوجيه مطالعتي نحوه، وأختار الكتب التي تساعدني على معالجة هذه المشكلة.

وطبعا، اختيار الكتب أيضا لا ينبغي أن يخضع للمزاجية أو لمجرد العناوين التي تجذبني، فالكتاب المناسب يحتاج إلى اختيار واع، وهذا الاختيار قد يحتاج إلى استشارة أهل الخبرة ومعرفة ما يناسب المستوى والحاجة التي أريد معالجتها.

في قضية بناء الشخصية وفي بناء الذات، كم أنا أحتاج إلى أمور حتى أصل إلى نقطة البناء الذاتي الممنهج. وكل ذلك يرجع إلى وضوح الرؤية: إلى أين أريد؟ ما الذي أريده؟ ما هو المطلوب مني فعلاً؟ هذا ـ للأسف الشديد ـ يفتقده كثير من أفراد الأمة، خصوصاً طلائع الأمة أو نخبة الأمة.

لا أريد أن أبحث عن الأسباب، إذ إن الأسباب كثيرة جداً.

إنما البحث هو: كيف أكوّن لنفسي رؤية صحيحة حتى أنطلق بشكل جيد؟

هذا يحتاج إلى دراسة في مسألة الإيمان، ولا يمكن أن أحصل على رؤية صحيحة، وفي نفس الوقت ثبات في الرؤية، إلا أن أكون على مستوى عالٍ من الإيمان.

الذي لا إيمان له، الذي لا عقيدة له، الذي لا رسوخ في عقيدته فيما يرتبط بالرسالة التي يحملها، والمتردد في كل ذلك، هذا لا يمكن أن نرجو منه خيراً.

المترددون المشككون المتزلزلون في إيمانهم، هؤلاء في واقع الحال قد يكون ضررهم أكثر من نفعهم في مسيرة البناء الذاتي أو في مسيرة الرسالة الإسلامية وحمل الرسالة الإسلامية. لذلك تجد أن القرآن الكريم والروايات الشريفة تحذّر النبي (صلى الله عليه وآله) من المترددين والمذبذبين. هؤلاء مشكلة، مرض في جسد الأمة.

فأنا، حتى لا أكون متردداً أو مذبذباً في أفكاري، في عقيدتي، وأي موجة أو أي فكرة قد أواجهها تؤثر في مجموعة اعتقاداتي وإيماني، هذا في واقع الحال أعتقد أنه الخطوة الأولى المهمة في بناء الذات. في بناء الذات التي يفترض أن تكون ذاتاً صاحبة رسالة، شخصية صاحبة رسالة: تقوية الإيمان.

كيف أقوي إيماني؟

تقوية الإيمان تحتاج إلى قضايا عديدة، وأهم قضية هي الإيمان بالغيب.

انظروا إلى أين عدنا. جئنا من الواقع الذي نعيشه لنصل إلى ما نريد، وانتهينا إلى المبدأ الأول، وهو الإيمان بالغيب.

رب العالمين، عندما يتحدث عن المتقين، يجعل أول صفاتهم الإيمان بالغيب: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [سورة البقرة: 3].

قد يقول قائل: في هذا الزمن وهذه المرحلة، ونحن أناس يفترض أن نكون أصحاب مشاريع وبرامج، وكل واحد منا عنصراً فاعلاً في المجتمع؛ في إدارة الدورات الصيفية، وتوجيه الشباب والطلائع، وتنمية الجيل... قد يبدو الحديث معنا عن هذه القضية غريباً. تقولون لنا: آمنوا بالغيب! ألا نؤمن نحن بالغيب؟

نعم، نحن في كثير من الأحيان نتصور أننا قطعنا خطوات في الإيمان، وأننا بلغنا مراحل متقدمة فيه، لكن عندما نبتلى ببعض القضايا والاختبارات، نجد أنفسنا في واقع الحال ربما ما زلنا في أول الطريق.

وهذا التصور قد ينشأ من الغفلة، وقد ينشأ من الجهل المركب؛ فالإنسان قد يتصور شيئاً عن نفسه، بينما يكون الواقع شيئاً آخر.

وعلى أي حال، فإن مثل هذه الأمور تجعل الإنسان بحاجة إلى أن يراجع حقيقة إيمانه. فالإيمان بالغيب، أيها الأصدقاء، هل نحن بحاجة إلى أن نعمقه؟ الجواب: نعم، لأنه الأساس، فإذا لم يكن هذا الأمر مركوزاً في قلوبنا ونفوسنا، فإننا في واقع الحال قد نبتلى بما ابتليت به الأمة، بل بما ابتلي به رسول الله (صلى الله عليه وآله) من بعض الذين كانوا حوله.

وهذه الآية الكريمة من سورة البقرة تتحدث عن هذا النوع من الإشكالية. كانت هناك جماعة حول رسول الله (صلى الله عليه وآله)، يتحملون مسؤولية رسالة الإسلام، ويصلون معه الصلوات الخمس، ومع ذلك وقعوا في مشكلة.

ما هي المشكلة؟

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمرهم في البداية أن يصلوا باتجاه بيت المقدس، فكانت قبلتهم إلى بيت المقدس، واستمروا على ذلك فترة من الزمن. ثم، في لحظة من اللحظات، أمرهم الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) أن يتوجهوا إلى الكعبة المشرفة.

هذا التغيير في القبلة يبدو قضية بسيطة جداً إذا نظرنا إليه من حيث الظاهر، لكنه في الحقيقة يكشف عن مستوى الإنسان في الإيمان والتسليم.

أنا إذا كنت مؤمناً بشخصية، ومؤمناً بالمرجعية الدينية، وأؤمن بأن قول من ثبتت حجيته عليَّ وفق الموازين الشرعية هو حجة عليَّ، أو كنت مؤمناً بأبي عبد الله الحسين صلوات الله وسلامه عليه، فإن الإيمان الحقيقي يقتضي التسليم لما يصدر عنه ضمن موقعه وحجيته.

ولذلك نجد في الروايات اختبارات تكشف حقيقة هذا التسليم.

فقد جرت مثل هذه الحادثة مع سهل بن الحسن الخراساني، حين دخل على الإمام الصادق (عليه السلام) وقال له: يا ابن رسول الله، لم لا تنهض وعندك مائة ألف من شيعتك يضربون بين يديك بالسيف؟

لم يجبه الإمام مباشرة، وإنما أمر بإيقاد التنور، ثم قال للخراساني: قم فاجلس في التنور.

فتردد الخراساني وقال: يا سيدي، يا ابن رسول الله، لا تعذبني بالنار، أقلني أقالك الله، فقال له الإمام: قد أقلتك.

وبينما هم كذلك، دخل هارون المكي، فقال له الإمام (عليه السلام): ألق النعل من يدك، واجلس في التنور.

فألقى هارون نعله من يده، ودخل التنور من دون تردد. وكان الإمام (عليه السلام) يتحدث مع الخراساني عن خراسان، حتى كأنه يشاهدها أمامه. ثم قال له: يا خراساني، وانظر ما في التنور، فقام الخراساني ونظر، فإذا بهارون المكي متربع في التنور.

فقال له الإمام (عليه السلام): كم تجد بخراسان مثل هذا؟ قال: والله، ولا واحداً.

فقال (عليه السلام): لا والله ولا واحداً[1].

ثم بيّن له أن الزمن لم يكن فيه من يعاضد الإمام ويقوم معه إلا القليل.

القضية هنا ليست أن الإنسان يلغي عقله، وإنما أن يعرف لمن سلّم، ولماذا سلّم، وما معنى أن يكون الشخص حجة لله عليه. فإذا آمن الإنسان بإمامة إمام، وقيادة قائد جعله الله حجة عليه، ورأى أن خيره وشره وفوزه وخسرانه مرتبط باتباعه وعدم اتباعه، فإن التسليم لأمره يصبح نتيجة طبيعية لهذا الإيمان.

فالإنسان الذي وصل إلى هذه الدرجة من اليقين لا يتعامل مع أمر الإمام بوصفه أمراً عادياً يخضع لمزاجه الشخصي؛ فإذا قال له الإمام: «ألق نفسك في التنور»، أطاعه؛ وإذا قال له: صالح معاوية، قال: أطيعك يا مولاي، أصالح معاوية، ولا تكون لديه مشكلة في أصل الامتثال، لأنه يعلم أن الإمام لا يريد له الشر، وأن وراء أمره علماً وحكمة قد لا يدركهما هو.

قد يُقال: مَن هو معاوية الذي قاتل أباك وقاتل علياً (عليه السلام)؟"

لكنّ الإمام الحسن (عليه السلام) صالحه. والمؤمن الحقّ حين يُدرِك أنّ إمامه أعلم بعاقبته وخيره، لا يدخل في تفاصيل "لماذا هذا؟". فـ الاعتراض ليس من شِيَم المؤمن.

لماذا؟ لأنّ المشكلة دائماً منبعها ضعف الإيمان. قضية تغيير القبلة مثال واضح. فقد أحدثت تلك المسألة فتنةً عظيمة، كما تشير الآية المباركة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي لنعلم – أي ليتبيّن – أنّ الأمر كان اختباراً وفتنة:

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾. وقد تسأل: هل انقلب بعضهم حين تغيّرت القبلة؟ نعم، القرآن يُصرّح أنّ جماعةً قد انقلبوا، وصارت لهم مجالس واجتماعات يسخرون فيها من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويشكّكون الناس في

[1] -ينظر بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ١٢٣/٤٧.

أفعالهم، ويقولون: "نحن صلّينا سنتين إلى بيت المقدس، فأين ذهبت صلاتنا؟" ويضحكون ويستهزئون. فلو كان الإيمان راسخاً، لما وجد مجالٌ للسخرية ولا للتساؤل ولا للاعتراض. لكن أين المشكلة؟

المشكلة في إيمانهم؛ لأنّه لم يكن إيماناً كاملًا ولا عميقاً.

الإيمان العميق هو أن يأتي الموالي إلى إمامه فيقول: مولاي، أنا أحبكم، وأنا مؤمن بكم، وأعتقد بولايتكم، ثم يزداد يقينه حتى يقول له: يا مولاي، لو كانت بين يديّ تفاحة واحدة من شجرة واحدة، فقسمتها نصفين، وقلتَ: هذا النصف حلال، وهذا النصف حرام، لاجتنبتُ ما حرّمته، وأكلت ما أحللتَه، مع أنها تفاحة واحدة.

ولا يسأله: لماذا؟ لأنّ السؤال عن العلة ليس شأنه، هو يرى الإمام ولياً لله، آمراً ناهياً، وما عليه إلا الطاعة.

وهذا النوع إذا تمتعت به الأُمّة، أعني الإيمان العميق والإيمان بالغيب، وأنّ ما يقرره الله تعالى وأولياؤه الصالحون والرسل والأنبياء إنما هو لمصلحة الإنسان، سواء وافق هوى النفس أم خالفه؛ فإنّ هذا الإيمان يكون نفعاً خالصاً للإنسان؛ لأنه يعلم أنّ الذي يأمر وينهى عليم حكيم، رؤوف رحيم، لا يريد لعباده إلا الخير.

الأُمم التي سقطت وفشلت

إنّ الأمم التي سقطت، والأمم التي فشلت وتراجعت، إنما كانت مشكلتها فقدان هذا المستوى من الإيمان. انظروا إلى بني إسرائيل: كم ساندهم الله سبحانه وتعالى، وكم أنعم عليهم، ثم ماذا فعلوا بأنفسهم؟

عندما نرجع إلى قصتهم، نجد أنّ هناك مشكلة في هذا النمط من الإيمان: تذبذب، ضعف يقين، وعدم ثبات.

قضية قبلة... قضية حربٍ وصلح... الاعتراض واحد

تغيّرت القبلة، فاعترضوا.

وقع الحسن (عليه السلام) على الصلح، فقالوا له: لماذا أبوك حارب وأنت صالحت؟ ذاك معزّ المؤمنين وأنت مذلّ المؤمنين. هكذا قالوا جهلاً وظلماً.

ثم جاء الإمام الحسين (عليه السلام)، فتساءلوا مرة أخرى: كيف تحارب وقد صالح أخوك؟ وكيف تجرّ المؤمنين إلى سفك الدماء؟

وهذا كلّه موجود في التاريخ، ومُسجّل في الروايات والسير.

المشكلة المركزية

وكل هذه الاعتراضات — في القبلة، وفي الحرب، وفي الصلح — تعود إلى نقطة واحدة فقط: عدم الإيمان العميق، وعدم الثبات في العقيدة على أنّ أمر الإمام حجة، وأنّ طاعته واجبة، وأنّ ما يأمر به هو الذي ينبغي الائتمار به.

فإذا أردنا أن نتحرّك — في أيّ اتجاهٍ نريد أن نتحرك: في دورة صيفية، في مدرسة تربوية، في محفل علمي، أو في أي نشاط آخر — فلا بدّ أن نبدأ بهذه النقطة أولاً:

كيف نعمّق الإيمان بالغيب في نفوس أولادنا وشبابنا؟

كيف نغرس هذا الإيمان؟ وكيف نثبّته في وجدانهم؟

وهذا لا يُعالَج بمحاضرة أو ندوة ساعة أو ساعتين، بل يحتاج إلى مناهج كاملة، مرتّبة، متدرجة، تُبنى على رؤية واضحة.

والقرآن الكريم عجيب في هذا الباب. فقد عالج هذه المسألة معالجة دقيقة، وفتح لنا أبواباً واسعة من خلال عرض الوقائع التاريخية، وتجارب الأنبياء مع أممهم، وكيف تعامل ربّ العالمين مع تلك الأمم. وهذه كلّها تشكّل منهجاً عميقاً يمكن أن نعتمد عليه في ترسيخ هذا النوع من الإيمان.

كثير من الناس — ونحن منهم — يعتقدون أنّ العقيدة والإيمان والثوابت العقائدية مركزها الأول هو العاطفة. ويظنون أن الحبّ والولاء والمودّة هي كل شيء. نعم... العاطفة زاوية مهمة وركنٌ أساس. الانشداد القلبي، التفاعل الروحي، حرارة الوجدان... كلّها عناصر مطلوبة. بل نعتقد أن أي مشروع فكري، أو مشروع تابع لتنمية الأمّة، لا يمكن أن ينجح بلا حضور العاطفة.

وربّ العالمين جعل أجر الرسالة: {المودة في القربى}. ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [سورة الشورى: 23].

لكن هل المودّة والعاطفة هي كل شيء؟ الجواب: كلا.

لا بدّ أن تقترن الحالة العاطفية — الولاء القلبي والمودّة الروحية — بـ العلم.

العلم،هو الذي يجعل العاطفة راسخة، واعية، ثابتة، غير قابلة للانكسار عند الشبهة أو الفتنة أو التغيير. تُسمّي الروايات هذا العلم بـ المعرفة.

والعاطفة بلا علم مُخَرِّبة، وهذا ما نراه اليوم عند بعض الجماعات، وخصوصاً أصحاب مسلك الغلو؛ فهؤلاء يعيشون حالة الأُحادية: عاطفة بلا علم، اندفاع بلا بصيرة، حرارة بلا ميزان. والنتيجة تكون انحرافاً وفوضى.

وفي المقابل، العلم بلا عاطفة لا ينفع. العلم إذا كان جافّاً، بارداً، لا يلامس القلب ولا يحرّك الوجدان، يتحوّل إلى معلومات لا أثر لها.

ولذلك نحتاج — وبشكل مركز ومهم — إلى الجانبين معاً: العلم والمعرفة، مع العاطفة والولاء. فنزداد علماً، ونزداد معرفة، ونزداد إيماناً وثباتاً. وفي الوقت نفسه، لا بدّ من وجود التفاعل القلبي، والتفاعل الروحي، والمحبة في القلب؛ فهي الجناح الثاني الذي يوازن الجناح الأول.

وربّ العالمين عندما يبيّن في هذه الآية وغيرها أننا أمام امتحان إلهي دائم، فهو يشير إلى حقيقة يجب أن نستحضرها دائماً: إنّ الإنسان لا يتوهّم أنّه بمجرد انتمائه إلى أهل الإيمان، أو كونه من جماعة المسلمين، سيُعفى من الاختبار.

ليس هناك شيء اسمه: "هذا مُستثنى".

كما يوجد في حياتنا اليومية استثناءات لفلان وفلان — فهذا مستثنى من كذا، وذاك مستثنى من أمرٍ ما — فإنّ منهج رب العالمين لا استثناء فيه.

الكل يخضع للاختبار الإلهي. الكل، بلا استثناء... حتى الأنبياء والرسل.

نعم، لقد وقع الأنبياء في اختبارات عظيمة. انظروا إلى ابتلاء نبيّ الله أيوب، وتأمّلوا ما مرّ به نبيّ الله نوح، وتأملوا في امتحانات إبراهيم الخليل (عليه السلام). كلّ واحد منهم ابتُلي بابتلاءات جسيمة. وهذا يجب أن نفهمه جيداً.

قد يقول قائل: أنا الآن لدي نشاطات، وعندي تاريخ في مجال الدعوة إلى الله، وفي التبليغ الديني، وفي تربية المؤمنين. فأقول: نعم، هذا كله حق، وهو إن شاء الله تعالى مذخور لك، ولكنك أيضاً معرّض للامتحان الإلهي، ومعرّض للاختبار في كل لحظة.

وقد رأيتم ذلك بأعينكم في تاريخنا الحديث. والحمد لله رب العالمين، أصبح كل شيء اليوم واضحاً لا لبس فيه.

رأينا أشخاصاً من أهل العلم، ومن الحوزات، بلغوا مراتب عالية، ولهم تاريخ طويل، ومؤلفات عديدة، ومجالس، وطلبة، ثم يُختبرون فيسقطون.

يُختبر الإنسان بالعجب، ويُختبر بالغرور، ويُختبر بحب الشهرة أو حب الدنيا. وهذه الابتلاءات موجودة منذ القدم، وستبقى.

كم من رجل كان يُقال عنه: «آية الله فلان»، ثم إذا به ينحرف عن الطريق. ورأينا ذلك بأعيننا، ولم يكن الأمر مجرد قصص نسمعها. كنا نسمع عن فلان الذي خرج عن الخط، وعن آخر لُعن باتجاهه، وعن ثالث أبعده الله عن رحمته. كنا نسمع، أما اليوم فقد رأينا.

فما هي الضمانة؟

هل هناك صك غفران يضمن لك أنك ستبقى ثابتاً حتى النهاية؟ كلا، لا يوجد.

انظروا إلى كربلاء الحسين صلوات الله وسلامه عليه. الذين تحركوا معه في البداية، كم كانوا؟ والذين بقوا معه حتى ظهر يوم العاشر، كم أصبحوا؟

وبالعكس أيضاً، ترى إنساناً كان في حال من التردي، ثم ينتقل إلى حال الهداية والاستقامة.

هذه هي الدنيا؛ قائمة على الابتلاء الإلهي والامتحان الإلهي. ولهذا لا بد أن نكون على درجة عالية من التعبد.

نحن متعبدون. فإذا صدرت الفتوى، انتهى الأمر: يجب أن أطيع.

إذا أُعلن أن غداً هو العيد، سواء قبل فلان أم لم يقبل، وسواء أعجبه الأمر أم لم يعجبه، أعلن أو لم يعلن، فليس هذا هو المهم. المهم أن هذا هو الإيمان، وهذا هو التعبد بالحكم الشرعي عندما يصدر ممن هو أهل له.

وهذا ما نحتاج إلى أن نثبته في أذهان شبابنا، وفي أذهان جيلنا، الذين، للأسف الشديد، قد تأخذهم الصيحات من هنا وهناك، ويحاول البعض أن يشككهم فيما يؤمنون به.

والآية تقول: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ لنعلم، أي ليظهر ويتبين، وليتميز المؤمن من غيره.

وهذا يدعونا إلى قضية مهمة جداً ينبغي أن نعمل عليها، وأن نجعلها هدفاً تربوياً مركزياً، وهي: الوصول إلى مرتبة التسليم.

التسليم لله سبحانه وتعالى مقام عظيم، وليس من السهل أبداً أن يصل الإنسان إلى مستوى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

هذا مقام عظيم، ولو أردنا أن نفصل معناه لرأينا أنه من أعسر المقامات على النفس؛ لأن الإنسان بطبيعته يريد أن يفهم، وأن يختار، وأن يرى الأمور من زاويته، أما التسليم الحقيقي فيظهر عندما يواجه الإنسان حكماً أو أمراً لا يوافق رغبته، ثم يقدّم حكم الله على رغبته.

تأمّلوا في مشهد إبراهيم مع ولده إسماعيل (عليهما السلام). يقول له الأب: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[2]. فيضرب الابن مثلاً أعلى في التسليم فيقول: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

انظروا إلى هذا التسليم الإلهي العظيم... تسليم حتى في مستوى ذبح الولد.

فكيف إذن بقضية إثبات هلال العيد أو عدم ثبوته؟ وكيف بقضية أن هذا الأمر حرام وذاك واجب؟

مشكلتنا أننا لا نملك هذا التسليم بالمعنى الحقيقي. والدليل واضح أمامنا: انظروا إلى نسبة المحرمات التي يقع فيها المجتمع مع أنه مجتمع يُعدّ متديناً: يصلون، يصومون، يحجون، يعتمرون... ومع ذلك تُرى نسبة من المحرمات تُرتكب.

فكيف تقع هذه المخالفات؟ أَلَيْسَت هناك فتوى شرعية صريحة بتحريمها؟

الجواب: نعم، هناك فتوى. فلماذا إذن نقع فيها؟ لأنه لا يوجد تسليم.

هناك تحايل... هناك التفاف... كمن يقول: يمكن الفتوى غير دقيقة.

[2] - ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 102].

أرجع إلى من يقول بالاحتياط الوجوبي، وهكذا...

هذه محاولات للهروب من حقيقة التكليف.

وربّ العالمين يوجّه لنا رسالة واضحة: أيها المؤمنون، أيها المسلمون، أنتم في دورة مهمة اسمها الدنيا. هذه الحياة الدنيا فيها ما فيها: لعب ولهو، ملذات وابتلاءات، فرص وفتن، عذابات وامتحانات والابتلاءاتُ والأمراضُ والجوعُ والعطشُ كلّها موجودة. ولكن هنيئاً لمن عرف المراد وعرف المطلوب، فكان على الطريق. ولذلك أرجع فأقول: الرؤية أوّلاً، تحديدُها وكيف نبنيها. والأساسُ المهمُّ في إيجاد هذه الرؤية الصحيحة هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى إيماناً عميقاً بالغيب الذي نحن مأمورون به، وهذا كلّه يرجع إلى التسليم: التسليمِ بما أمر الله به وما نهى عنه. ونعتقد أنّ الإنسان بهذا يصل إلى العاقبة الحسنة.

بناء الإيمان وأثر القدوة في هداية الأجيال

كيف يمكن للإنسان أن يكوّن رؤية واضحة في حياته الإيمانية، وأن يزداد إيماناً راسخاً يمكّنه من نقل هذه الرؤية إلى الأجيال التي يريد التأثير فيها؟

فعلى الرغم من الالتزام بالجانب العملي وضيق الوقت، يبقى السؤال: ما الطريق الأمثل لبناء هذه الرؤية الإيمانية؟ هل يكون ذلك من خلال قراءة مناهج وكتب محددة؟ أم من خلال الالتزام بمجموعة من المعاملات والعبادات والممارسات العملية؟ وما المنهج الذي يعينني أولاً على تحقيق الوضوح في داخلي، ثم يمكنني من إيصال هذا الإيمان إلى الآخرين بصورة صحيحة، بحيث يساعدهم هم أيضاً على بناء إيمان أوضح وأقوى؟

الجواب المفصل:

قضية تقوية الإيمان وتقوية البنية العقدية في نفس الإنسان، هي في واقع الحال لا تحتاج بالضرورة إلى كثرة الدراسة، بقدر ما تحتاج إلى التنبه والتبصر.

فرب كلمة واحدة قد تكون سبباً في هداية الإنسان إلى الأبد. وقد تجد إنساناً حمل كتاباً ما، ولا نريد هنا أن نذكر أسماء بعض الكتب ذات الطابع الفلسفي، وقرأ فيه ثلاثين سنة، ثم يخرج عن الخط وعن الطريق.

وربما كان ذلك لأنه اتبع منهجاً يجعل الدين قائماً على العقليات والتعقل والقضايا العقلية البعيدة عن الإيمان بالغيب.

وفي المقابل، قد تجد إنساناً يتعمق في الإيمان في لحظة واحدة، وربما تكون آية واحدة سمعها، بل جزءاً من آية، سبباً في هدايته وتغير مساره.

فالمسألة ليست بكثرة ما يقرأ الإنسان، وإنما بمدى ما يوقظه ما يقرأه ويسمعه من وعي وإيمان، وبقدرته على أن يتعامل مع الهداية بقلب حاضر ونفس متبصرة.

أمثلة على قوة الإشارة الواحدة:

1- تلك المرأة التي سُئلت: "من أين عرفتِ أن الله موجود وأن للكون خالق؟"، قالت: "من خلال مغزلي هذا". فهي تثبت وجود الخالق من مغزلها، ولا تحتاج إلى أكثر من هذا.

2- في قصة بِشر الحافي رجل يمشي في الطريق، يرى امرأة تخرج من بيت فيه الغناء ومظاهر الفسق والفجور. يسألها: "بيت من هذا؟". قالت: "مولاي بِشر". فقال الرجل: "صدقتِ، لو كان عبداً لما فعل كذا". تدخل المرأة فيسألها بِشر: "لماذا تأخرتِ؟". فقالت: "والله رجل مر عليّ وسألني هذا السؤال، وأجبت". قال بِشر: "لو كان عبداً لما كذا". فيخرج حافياً ويعتذر ويتوب إلى الله. وسمي ببشر الحافي لخروجه إلى الإمام موسى بن جعفر حافياً لطلب العفو والاعتذار.

3-وقد تكون آية واحدة، مثل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾[الحديد: 16] [3]، جزء آية، سببًا لرجوع الإنسان العاصي المجرم عن إجرامه.

فالقضية ليست في الكم العلمي، بل هي في النكتة التي يجعلها الله سبحانه وتعالى في قلب المؤمن، نكتة مضيئة. هذه النكتة المضيئة هي التي شيئاً فشيئاً تتوسع حتى تغطي قلبه، فيكون قلبه مليئاً بالحكمة والنور. والروايات تشير إلى أن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء.

أهمية مجالسة العالم:

وقد ورد في بعض الروايات أن الجلوس عند عبادة، إذ ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): ((المتقون سادة والفقهاء قادة والجلوس إليهم عبادة))[4]. وهذا ليس مبالغة؛ لأن ساعة عند العالم قد تكون هي مفتاح أساسي لحياتك، تفتح عليك آفاقاً حقيقية.

[3] - عن الفضل بن موسى قال : كان الفضيل بن عياض شاطرا يقطع الطريق بين أبي ورد وسرخس وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليا يتلو (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فلم سمعها قال بلى يا رب قد آن فرجع فأواه الليل إلى خربة وإذا فيها سابلة فقال بعضهم نرتحل وقال بعضهم حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا قال ففكرت وقلت أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين ههنا يخافوني وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت. تاريخ دمشق، لابن عساكر: 48/ 383.

[4] - الأمالي، الشَّيخ الطُّوسي: 225.

كيفية نقل الإيمان للأجيال:

تنقل للأجيال ليست بالمحاضرات ولا بالندوات. بل تنقل للأجيال بالسَّمت والأخلاق والسيرة. فسَمتُك وسيرتك وأخلاقياتك هي أكبر درس للآخرين. فـ((كونوا لنا دعاة بغير ألسنتكم)))[5]. فعندما يكون الإنسان متعففاً، طيباً، ملتزماً، صدوقاً، صاحب حياة وصاحب إيمان، الناس يروننني قبل أن يسمعوني. فخلق القدوة أو خلق من النفس قدوة صالحة للآخرين بحد ذاته ينقل هذا الأمر إليهم. ولا نغفل العمل العام بالشكل الذي رسمه الإسلام في مسألة تبليغ الرسالة.

والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

[5] - عن ابن أبي يعفور قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): ((كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير فان ذلك داعية)). وسائل الشيعة، الحر العاملي: ١٥ /٢٤٦.